زواج تولستوى (*)

للأستاذ محمود الخفيف

— ١ —

كان الطبيب بيرز يعيش وأسرته عيشة راضية فى موسكو منذ أن تزوج سنة ١٧٤٢ وهو فى الرابعة والثلاثين من عمره بالآنسة ليوبوف إسلافين ، وكانت فتاة فى السادسة عشرة ...

كان هذا الطبيب الألمانى الأصل موفور الرزق يكسب من حرفته ومن وظيفته فى بلاد القيصر ؛ وإن لم يك من ذوى الثراء الواسع ؛ وكان له ولأسرته مكانة اجتماعية مردها إلى منصبه الرسمى الذى حصل فيه على لقب النبل جزاءاً على خدماته فى القصر الإمبراطورى ...

وقد أنجبت الزوجة الفتية لبعلها حتى سنة ١٨٦٢ ثلاث عشرة عاش منهم ثمانية ، ومن هؤلاء ثلاث بنات كانت كبراهن واسمها إليزابث فى التاسعة عشرة ، ويليها سوفيا وهى دونها بسنة ، ثم تانيانا وهى دون سوفيا بسنتين ...

ولم تكن زوجة الطبيب بيرز إلا تلك البنت التى أحبها تولستوى وهو طفل ، والتى أدت به الغيرة ، ذات يوم ، إلى أن يدفعها من شرفة فأصابها بالعرج زمناً غير قصير ؛ لم تكن إلا إسلنيف الصغيرة التى عاشت فى كنف أبيه ، وقد ولدتها أمها لرجل يدعى الاسكندر إسلنيف عاشت معه بعد أن هجرت زوجها ولم تستطع أن تحصل منه على الطلاق .

وقد تعلم البنات فى البيت على أيدى معلمين ومعلمات من ألمان وفرنسيين ، وكان أبوهن يعدهن ليكسبن قوتهن بعملهن ، ولذلك كن يتعلمن ليكن معلمات ...

وقرأ البنات ، وبخاصة سوفيا ، كثيراً من الكتب . وكان لقصة ترجنيف الآباء والأبناء أثر عظيم فى نفوسهن ؛ وقد اشتد عطفهن على بطل القصة بازاروف .

وفى ربيع سنة ١٨٦١ نجحت اليزابث وصوفيا فى امتحان تبيح لهما الالتحاق بجامعة موسكو .

(*) فصل من كتاب « تولستوى » الذى سوف تقدمه إلى المكتبة العربية قريباً « مطبعة الرسالة »

تولستوى قبيل زواجه

وكان البنات فى غير أوقات الدروس يخطن ويطرزن وينظفن المنزل ويقمن على مختلف شؤونه ، ويعلمن إخوتهن الصغار ؛ ولم يكن يكدر عليهن صفو حياتهن إلا ما يكون أحياناً من غضب أبيهن ، ولكنهن لم يرين أمهن الصبور الهادئة كيف تحتال بكل حيلة لتفثأ غضبه . فأثر ذلك فيهن أثراً حميداً .

كانت اليزابث كبرى البنات فتاة طويلة القامة ، ساحرة العينين ، فى ملامحها كثير من الجد والسكون ؛ وكانت هادئة باردة الطبع ، قليلة النشاط نوعاً ما ؛ وكانت أعمال البيت تضايقها وتثير فى نفسها الاشمئزاز ، ولعل مرد ذلك إلى كسلها وإلى رغبتها فى القراءة ؛ فكثيراً ما كان يرى فى يدها كتاب ، لا تكاد تفرغ من عمل حتى تعود إليه .

وكانت تانيا صغراهن على نقيض اليزابث ، فتاة امرأ مرحة لا تفتأ تثب هنا وهناك حتى لتملأ البيت كله بضحكها وصوتها الساحر الجميل . وكانت تسمى فى البيت « الشيطانة الصغيرة » ، وكان لها ولع بالموسيقى ، وكانت متقدة العاطفة ؛ تملأ قلبها حرارة الشباب ، تحب صاحباتها فتستغرق فى الحب ، ولا تنى

تظهر لكل من يراها إعجابها بنفسها وفرط إحسانها بذاتها .

وكانت وسطاهن صوفيا ، أو سونيا كما كانت تسمى في البيت ، وسطاً بين أختيها : تميل إلى تاتيانا وتحب مرحها وتنكر من إليزابث سكونها وانطوائها على نفسها .

وكانت سونيا موفورة العافية ، نشطة متوردة الوجنتين ، براقة العينين ؛ وكانت ذات جمال وفتنة وبخاصة عيناها الواسعتان الرماديتان ...

ولئن كانت تحب صوفيا مرح أختها تاتيانا ، إلا أنها كانت تحس أبداً أن هاجساً خفياً لا تدريه ولا تنكره يوحي إليها شيئاً من الحزن المبهم الذي يشوب مرحها دائماً ، فلا تحس سروراً إلا أحست معه شيئاً من الحزن ؛ كتبت لتاتيانا ذات مرة تقول « إن تلك الموهبة التي تحسدين عليها وهي الاستمتاع بكل شيء وبكل شخص بارزة فيك كل البروز ، أما أنا فعلى عكس ذلك ، إذ أجد ثمة شيئاً حزيناً في كل مرح وكل سعادة » .

وكانت سونيا رحيمة بأختها ، تؤدي عمل البيت في غير ضجر أو كلال ؛ وكانت مولعة بالأدب والتصوير الموسيقي ؛ وقد احتفظت منذ الحادية عشرة بدفتر تثبت فيه ملاحظاتها ؛ وقد جاء فيه عن قراءتها قولها « لقد أحدث كل من « عهد الطفولة لتولستوى وداڤيد كوپر فيلد لدكنز في نفسي أعظم الأثر ، ولقد بكيت حين فرغت من قراءة كوپر فيلد لأني سوف أفترق عن أولئك الأشخاص الذين باتوا أعزاء إلى قلبي » .

وكان يغشى بيت بيرز كثير من الأشياف ، وبخاصة في يومي السبت والأحد ، وكانت بنات الطبيب زينة الدار ، وكانت أمهن شديدة الرقابة عليهن تحدجهن حدج اللائمة أمام الضيوف ، أو تنصح لهن بكلماتها إذا خلت إليهن ...

وأخذ البنات يغشين المجتمعات ويشهدن حفلات الرقص ويشاركن فيها ، وقد ذهب لهن صيت في الجمال والظرف والرشاقة وحسن الذوق .

وكان أول من أعجب بسونيا معلمها الشاب ، ولكنها كانت لا تكترث له ، ولا تعبأ بتهدانه ، وبينما كان يعينها على نقل مقعد إذ أمسك بيدها وقبلها ، فصاحت به كيف تجرؤ على ذلك ؟ ثم أرادت أن تريه مدى احتقارها إياه فمسحت بمنديلها موضع شفتيه من يدها ؛ ثم إنها أخبرت أمها بما فعل فلم تعفها من اللوم قائلة « لم لا تسلكين مسلك أختك إليزابث من الجد والاحتشام » وأبعد المعلم المسكين عن البيت ...

وأعجب بها بعده ضابط شاب ، وكان ينتمي إلى أسرة غنية يدعى بولفانوف ، وأحست سونيا انجذاباً نحوه ، ولما قبل يديها ذات مرة لم تغضب ولم تشمئز ، ولكنها أحست النشوة تشيع في هيكلها كله وبانت تتوقع وتحلم ...

ولما هم بالرحيل صارحها برغبته في أن يتزوجها ، وجعل لها الخيار أن تعدل عن رضائها إذا رضيت ، وذلك إذا اضطرته ظروف الحياة أن يغيب عنها . . . وأخذ أهلها هذا على أنه بعض عبث الشباب ...

* * *

كانت أول زيارة ذات بال من جانب تولستوى لأسرة بيرز سنة ١٨٥٦ ، وقد أشرنا إلى هذه الزيارة من قبل ، وقد أعدت المائدة له ولمن كان معه من الضيوف إليزابث أوليزا كما كانت تدعى وأختها سونيا ، وكانتا يومئذ طفلتين فلاعبهما تولستوى وضاحكهما وجلس بعد الطعام يقص عليهما القصص عن سباستبول وما كان من أنباء الحرب ، وكانتا قد قرأتا « عهد الطفولة » و « عهد الشباب » وسرهما ما جاء في الكتابين عن جدهما لأمهما وقد كان كما ذكرنا صديقاً لأبيه ... وأحست البنتان سروراً عظيماً لجلوسهما بين يدي الكاتب النابه ، وداخل تولستوى السرور مما أحس في الأسرة كلها من هيادة وأعجب بالبنتين وأختهما الصغيرة وما أشعنه حولهن من مسرة ... ولقد أسرعت سونيا بعد رحيله إلى الكرسي الذي كان يجلس عليه فربطت في رجله شريطاً لتعرفه ..

وفي سنة ١٨٦١ بعد عودته من رحلته الثانية إلى أوروبا ، زار تولستوى أسرة بيرز ، فأعجبه ما رأى من تغير البنات فقد غدون آنسات يغشين المجتمعات ويأخذن زينتهن في كل مجتمع ؛ وتهفو إليهن أفئدة الشباب ...

وتحدث إلى ليزا حديثاً في الأدب والدين وأفاض في الكلام عن مدرسته ، وأوحى إليها أن تكتب شيئاً من محمد النبي العربي ومن مارتن لوثر ؛ وجلس مع سونيا إلى البيان ، ولعب معها

طريح ؛ وعابث تانيا وضاحكها وقص عليها من قصصه ...

ولم يصرفه اهتمامه بمدرسته عن أسرة بيرز فأكثر من زيارتها ، ورفعت الكلفة بينه وبينهم فكان يأتي إليهم في أي وقت وكأنه واحد منهم ، وألفه البنات وألفهن ، وكن يشرن إليه بلقب « الكونت » وألفه كذلك خدم الدار وبات يحبه ويأنس إليه كل من يراه ...

وتحدث الناس أنه عما قريب سوف يخطب ليزا إلى أهلها ، وقيل إنه ذكر لأخته مرة أنه إذا تزوج يوماً ما فستكون زوجته من آل بيرز ...

وبلغ حديث الناس آل بيرز فسرهم ذلك أبلغ السرور ، ففي اعتقادهم أن ليزا خير من تصلح زوجة للكونت ، وبات الأبوان يتمنيان الخطبة ، وسمت بذلك ليزا فزادت من عنايتها بمظهرها ، وباتت تحلم أحلام الحب والسعادة وفي نفسها عن « الكونت » قد شغفته حباً ...

ولكن تولستوي كان لا يحس في نفسه أنه يحبها ، فقد جاء في مذكراته في شهر مايو سنة ١٨٦١ قوله « قضيت يوماً بهيجاً عند آل بيرز ، يجب ألا أقدم على زواج ليزا » وقال في سبتمبر من تلك السنة إن إلزابث بيرز تغريني ، ولكني لن أدع ذلك يحدث ، فإن هذا الإغراء الذي لا يصحبه أي شعور ما غير مجد » .

وأحس أن سونيا تزداد كل يوم قرباً إلى قلبه ، كما كانت تزداد حسناً ، وأحست الفتاة زيادة اهتمامه بها ، وكان صاحبها القنوف قد غاب عنها غيبة تشبه القطيعة ، وكانت تتوجد عليه أنا ، حتى لتجهش إذا خلت إلى نفسها . ولما رأت إقبال تولستوي عليها أحست مع حسرتها على صاحبها وحيرتها من مسلك الكونت ، وباتت تسأل نفسها : أهو حقاً يحبها ؟ ثم لا تلبث أن ترى أنها واهمة فتذكر بوليفانوف ، ولكنها لا تكاد تلقى تولستوي حتى تملأ نفسها الحيرة .

وعرج تولستوي على موسكو في صيف سنة ١٨٦٢ وهو في طريقه إلى سمارا ، فزار آل بيرز ؛ وكانت سونيا يومئذ تميل بقلبها إلى تولستوي ، ولا تكاد تذكر بوليفانوف ، وكان يحس الكونت نحوها أن قد أخذ يمس قلبه الحب .

ولما قص تولستوي على الأسرة كيف اضطر إلى بيع قصته قبل أن يتمها أو يهذبها ليؤدي بثمنها دينه بعد خسارته في الميسر ، لم تقو سونيا على حبس دموعها رثاء له وتألماً من مسلكه . ولما رحل عنهم كانت سونيا حزينة تطيل النظر صلواتها فدنت منها «الشيطانة الصغيرة» تاتيانا وسألتها في خبث « أتحبين الكونت يا سونيا ؟ » فأجابت أختها في دهشة « لست أدري ... »

ولما عاد تولستوي من سمارا إلى قريته والغضب ملء نفسه مما فعل الشرطة بداره ومدرسته ، أنساه غضبه زيارة من زوجة بيرز ومعها بناتها في أجمل ملابسهن الصيفية لأخته ماري في ياسنايا بوليانا .

وشاع في نفسه السرور بهذه الزيارة ، وكانت تراه عمته تاتيانا وأخته ماري وكأنه من فرط مرحه قد عاد إلى سن العشرين ، وباتتا ترتقبان أن يطلب يد ليزا .

وبلغ من حفاوة تولستوي بالفتيات أن عمل مع الخدم في إعداد سرور نزلهن بنفسه ، وكن في الحجرة التي جعلت لهن يؤدين بعض ما يتطلبه هذا الأعداد وكم ضحكن في مرح وغبطة والتقت عينا تولستوي بعيني سونيا ، وكانت بينهما نظرة طويلة وكأنه لم يرها إلا في هذه اللحظة فإن شيئاً يحسه ولا يدري كنهه يسري في هيكله كله ، وإن عينيها لتحدثانه حديثاً يفهمه حتى كأنه الهمس ، وإن عينيه كذلك لتحدثانها بكل ما في نفسه .. وضرجت الحمرة وجهها فأشردت نظرتها ولكن بعد أن نفذت إلى قلبه .

وزاره في اليوم التالي صديقه فت وبعض أصحابه فخرجوا مع البنات إلى الغابة وقضوا نهارهم في مرح كان البنات مهمته كما كن مبعث ما شاع حولهن من جمال وفتنة .

ولما رحلن إلى إفتسي حيث أرادت أمهن أن تزور أباها في ضيعة التي ورثتها من أمها في هذه القرية التي كانت تبعد نحو أربعين ميلا عن ياسنايا ، لم يطق تولستوي الوحشة بعدهن ، فلحق بهن على جواد أبيض ونظرن فإذا به بينهن .

وكان القصر في افتسي حافلا بالضيوف ، وكان عدد من السيدات والآنسات بينهن بنات بيرز يتهيأن للرقص ، ولكن تولستوي كان في شغل بمأتوسوس به نفسه مما يدور حوله ، وجلس يحدث رب الدار حديثاً كانت تكدره خلجات وجدانه ،